



سعيد الشعلي

الوعي بالتاريخ عند العرب

يستهل عبدالرزاق عيد مقاله «أسئلة الوعي والنهوض والتاريخ في الفكر العربي المعاصر»، بطرح سؤال تاريخي مهم: «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟»، مجدداً السؤال بصيغة حدثية أخرى: «لماذا تأخر الوعي التاريخي العربي وتقدم عند الآخر؟»؛ مُعتبراً سبب تخلف المسلمين وتقدم الآخر هو عدم امتلاكهم للوعي التاريخي.

الذاتي الخاص، مع الموضوع الكوني العام. ويتناول في هذا الجانب فكرة الجابري الذي يدعو إلى الاستقلال التاريخي الشامل للذات العربية، انطلاقاً من أن إشكالية الأصالة والمعاصرة هي إشكالية نظرية يميل استقلالها النسبي عن الواقع نحو المنة بالمنة، فهي بالتعاليم مشكلة "فكرية" لا علاقة لها بالواقع، بل إن العقل يتداولها في نسقه التداولي المغلق، يطرحها كإشكالية، ثم يصبغها كنظرية من وراء ظهر الواقع/ المجتمع فإن هناك من يدعو صراحة لإعلانها حرباً، وأن الاستعمار هو الذي حمل الفكرة القومية إلى خارج أوروبا كي يسيطر بها على الشعوب غير الأوروبية، وأن الغرب هو الذي "نشر الفكرة القومية من طريق الإرساليات والمدارس الأجنبية، خاصة الشام ولبنان، وتعليم أبنائه وتربيتهم على الفكرة القومية، سلخاً لهم عن الأمة الإسلامية".

وهكذا نستطيع أن نقول إن عبدالرزاق كشف -من خلال مقاله- حالة الوعي التاريخي لدى العرب، وكيف يُمكن لهذا الوعي التاريخي أن يُساهم في تطور العرب فكرياً لولا حالة الجمود التي ما زالت مسيطرة على عقل العربي.

ومن وجهة نظري، أرى أن عبدالرزاق عيد استطاع مناقشة الوضع التاريخي عند المؤرخ العربي؛ بدءاً من عصر السيرة النبوية، وكيف أثرت السيرة على وضع التاريخ؛ انتهاءً بالمؤرخ الحديث. وأتفق مع ما قاله العروبي في وصف الليبراليين العرب بأنهم لم يأخذوا من الليبرالية غير الشعار فقط؛ ففي واقع الحياة نجد من يطالب بالليبرالية والمساواة وينادي بالحقوق وتطبيق العدالة كشعارات فقط لكنه يتراجع عن مقولاته عند أول اختبار حقيقي ويقوم بإقصاء مخالفه دون اعتبار لما كان يُنادي به. إن الحل الأمثل للتعامل مع التاريخ اليوم ليس بخلق قطيعة معادية لكل قديم، وإنما يكمن الحل في وضع التاريخ العربي والإسلامي تحت مشروط التحقيق، ثم الاستفادة من كل ذلك التاريخ لخلق جيل يستطيع تجاوز مشكلاته التاريخية.

فالليبرالية في السياق النهضوي العربي وفق منظومة العروبي تجسيد موضوعي عقلاني لمستوى التطور التاريخي الذي حققه المجتمع، ومستوى وعيه التاريخي بهذا التطور، أو بمعنى أدق استجابة لما لم يحققه المجتمع بعد، وهذا يعني بلغة ياسين الحافظ، أن الليبرالية في الزمن النهضوي أنتجت وعياً تاريخياً كونياً مطابقاً لحاجات المجتمع العربي، وهو يلتمس طريقه باتجاه التقدم والتحديث.

وفي نهاية المقال، ناقش الكاتب تاريخية طه حسين وبنويبة الجابري، الأول كأبرز ممثل لليبرالية النهضوية العربية، وأول المهتمين بالتأسيس للوعي التاريخي، والثاني كأول من وضع مشروعاً متكاملًا عن نظام التفكير العربي من خلال المنهجية الحديثة (البنويبة في اشتقاقها السيميولوجية والتفكيكية).. مشيراً إلى أن تاريخية طه حسين أنتجت وعياً مطابقاً لواقع الفكر العربي تاريخياً، بينما قراءة الجابري البنويبة أنتجت لنا تصنيفات للفكر العربي، ليس وفق سياقه التاريخي، بل وفق الترسيمات المسبقة التي ترغم الواقع على التكيف مع حاجات النموذج النظري المسبق. وفي آخر جزء من المقال، ناقش الكاتب مسألة الأنا/الآخر/مع إسقاط البعد الكوني للوعي التاريخي. ويرى أن البعد الكوني هو عنصر ضروري لاستكمال هذا الوعي لمنظوره لذاته من خلال جدلها

وللخبر المنقول. ويتناول عيد بعد ذلك الوضع الحالي في البحث التاريخي؛ من خلال تصنيفات الكاتب قسطنطين زريق، والتي يُمكن تصنيفها في أربعة اتجاهات: الاتجاه التقليدي الذي حافظ على نظرة المؤرخين القدامى، والاتجاه القومي الذي يغمس في الماضي القومي ويميل إلى التجريد على الطريقة الرومانسية والاتجاه الماركسي والاتجاه القومي. وينتقل الكاتب بعدها لمناقشة البعد الكوني في الوعي التاريخي ويبدأ بطرح سؤال ياسين الحافظ: "أين نحن العرب من الآخر في شبكة علاقاتنا مع الأمم والشعوب الأخرى؟ وكيف يفكر الآخر، لا سيما وأن الآخر هو المجتمع المتغلب؟"، إن من خصائص الوعي التاريخي: إيجابية الحدث التاريخي؛ إذ الحاضر يفسر الماضي، لكن الماضي لا ينفك عن حكم الحاضر، والأساس الفلسفي الكامن وراء هذا الوعي التاريخي يتمثل باعتبار أن لا حقيقة مطلقة سوى الصيرورة؛ فالحقيقة المطلقة تتكشف في إشراقه مباغتة؛ لذلك نجد أن الوعي التاريخي يتجاور مع الوعي الليبرالي الحديث، ومع الوعي الكوني لإنتاج الوعي المطابق وفق مصفوفة ياسين الحافظ النظرية. ناقش الكاتب بعدها الحداثة الليبرالية بين العروبي والحافظ؛ فالعروبي يرى أن علاقة المفكرين العرب بالليبرالية لم تتجاوز الشعار إلى التمثل الفلسفي؛

ويبدأ عيد بعدها مناقشة مشروعين فكريين عبر التناسخ معهما؛ وهما: مشروع عبدالله العروبي في بلاد المغرب، ومشروع ياسين الحافظ في بلاد الشام.. ومع هذا التناسخ نستطيع اكتشاف الركود الذي لحق ويلحق بالفكر العربي؛ فالأسئلة التي تُطرح والاستنتاجات التي تُستنتج ما زالت نفسها منذ قرن ونصف.. والعروبي الذي قدم في كتابه «العرب والتاريخ» مفاتيح مفاهيمية مهمة من الجهة الفنية والمعرفية والوظيفية، يرى أن المؤرخ المعاصر «لا يفسر الوقائع بمنطق المشاركين فيها، بل حسب منطق لم يعوه هم ويعيه هو اليوم» فلا بد من التمييز بين منطق المؤرخ، وارتباط وعدم ارتباط الأحداث والوقائع كما كانت فعلاً والتي لم يعلمها أحد بالضبط.. مُعتبراً السيرة النبوية هي المعيار الحاسم في البيئة التأليفية في مؤلفات التاريخ العربي، وهذا ما يُفسر حَسْب وجهة نظره الحيادية السلبية عند المؤرخ العربي تجاه الوقائع. ولهذا السبب نَظَر المؤرخ العربي لبعض الأحداث بسلبية؛ مثل فتوحات خلفاء بني أمية، لكن غاب عن ذهن العروبي مسألتان مهمتان؛ هما: إن ما يُسمى التاريخ القديم فيما قبل الدعوة لم يكن على هذه الدرجة من الإهمال كما ذهب، وأيضا عدم إثارته أي سؤال حول شروط التواتر والرواية، وما استتبع ذلك من علوم الجرح والتعديل، ومدى الوثوقية التي يمكن أن تُمنح للرواية

